حكايات نبوية

٤

هنيئاً لقد تاب الله عليك !!

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في رِحابِ السِّيرةِ النَّبويَّةِ

عَكَفَتْ (ليلى) على قِراءةِ كِتابٍ يَتَحدَّثُ عن سِيرةِ سَيِّدِ الأَنامِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وأَثْناءَ قِراءتِها وَجَدَتْ هذه الحِكايةَ ، فَأَعْجَبَتْها...

قال كعبُ بنُ مالكٍ رَضِي اللهُ عنه:

لم أَتخلَّفْ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ في غَزْوةٍ غَزَاها قَطُّ إلا في غَزْوةِ تَبُوكَ ، غيرَ أنِّي قد تَخَلَّفتُ في غَزْوةِ بَدْرٍ ، ولم يعاتِبْ أحداً تَخَلَّفَ عنه ، إنَّما خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ والمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيْرَ قُريشٍ(١) حَتَّى جَمَعَ اللهُ تعالى بينهم وبين عَدُوِّهم على غَيْرِ مِيْعادٍ.

---

(١) أي: الإبل التي تحمل تجارة أهل مكة.

ولقدْ شَهِدْتُ مع رَسُولِ الله ﷺ ليلةَ العَقَبةِ[1] حِينَ تَواثَقْنا على الإسْلامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإن كانتْ بَدْرُ أَذْكَرَ[2] في النَّاسِ منها، وكانَ من خَبَري حينَ تَخَلَّفْتُ عن رَسُولِ الله ﷺ في غَزْوةِ تَبُوكَ أنِّي لم أكنْ قَطُّ أقْوَى، ولا أيْسَرَ منِّي حينَ تَخَلَّفْتُ عنه في تلك الغَزْوةِ، ولم يكنْ رسولُ الله ﷺ يريدُ غَزْوةً إلا ورّى[3] بِغَيْرِها حتى كانتْ تلك الغَزْوةُ.

فَغَزاها رَسُولُ الله ﷺ في حَرٍّ شَديدٍ، واسْتَقْبلَ عَدَداً كَثِيراً، فَجَلَّى للمسلمينَ أَمْرَهم لِيتأهَّبوا أُهْبَةَ غَزْوِهم، فَأَخْبَرَهُم بِوَجْهِهم الذي يُرِيدُ، والمُسْلِمون

---

(١) أي: البيعة الثانية، والتي بايع فيها الأنصار رسول الله ﷺ على الإسلام.

(٢) أي: أشهر ذكراً في الفضيلة.

(٣) أي: أخفى مقصده، وذلك من باب السريّة والتمويه.

مع رَسُولِ الله كثيرٌ ، ولا يَجْمَعُهم كِتابٌ حافِظٌ[1].

قالَ كعبٌ رَضِيَ اللهُ عنه: فَقَلَّ رَجُلٌ يريدُ أن يتغيَّبَ إلا ظَنَّ أنَّ ذلك سَيَخْفَى؛ ما لم يَنْزِلْ فيه وَحْيٌ من اللهِ.

وغَزَا رَسُولُ الله ﷺ تلك الغَزْوةَ حينَ طابَتِ الثِّمارُ والظِّلالُ ، فأنا إليها أَصْعَرُ[2] ، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ الله والمسلمونَ معه ، وطَفِقْتُ[3] أُعِدُّ لكي أَتجَهَّزَ معه فَأَرْجِع ولم أَقْضِ شيئاً.

وأقولُ في نَفْسي: أنا قادرٌ على ذلكَ إذا أردتُ ، فلم يزلْ ذلك يَتَمادى بي ، حتَّى استمرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ ، فأصبحَ رَسُولُ الله ﷺ غادياً والمُسْلِمُون معه ، ولم أَقْضِ من جهازي شيئاً ، ثمَّ غَدَوْتُ

---

(١) أي: الديوان الذي يُستخدم لتسجيل أسماء الجند.
(٢) أي: أميل.
(٣) أي: جعلت.

فَرَجَعْتُ ولم أَقْضِ شيئاً ، فلم يزلْ ذلك يتمادى بي حتَّى أَسْرَعُوا وتَفَارَطَ[1] الغَزْو ، فَهَمَمْتُ أن أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكهم ، فيا ليتني فَعَلْتُ ، ثمَّ لم يُقَدِّرْ ذلك لي ، فَطَفِقْتُ إذا خَرَجْتُ في النَّاسِ بعدَ خُروجِ رَسُولِ الله ﷺ يَحْزُنُني ألا أرى لي أُسْوةً ، إلا رَجُلاً مَغْمُوصاً[2] عليه في النِّفاقِ ، أو رجلاً مِمَّن عَذَرَ اللهُ تعالى من الضُّعَفاء ، ولم يَذْكُرْني رَسُولُ الله ﷺ حتى بلَغَ تَبُوكَ ، وهو جالسٌ في القَوْمِ فقال: «ما فَعَلَ كعبُ بنُ مالكٍ؟» فقال رَجُلٌ من بني سَلَمة: يا رسولَ الله! حَبَسَهُ بُرْدَاهُ[3] والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ[4].

فقالَ له معاذُ بنُ جَبَلٍ رضي اللهُ عنه: بئسَ ما قلتَ ، والله يا رَسُولَ الله ﷺ ، فبينما هُو على ذلكَ

---

(١) أي: أسرع واقترب.
(٢) أي: مطعوناً في دينه.
(٣) أي: منعه من الخروج رداؤه.
(٤) أي: جانبيه ، والمقصود: كبره وعجبه بنفسه.

رأى رَجُلاً مُبَيّضاً يَزُولُ به السَّرابُ ، فقال الرَّسولُ: «كُنْ أبا خَيْثَمَةَ» فإذا هو أبو خَيْثمةَ الأَنْصاريُّ ، الذي تَصَدَّقَ بصاعِ التَّمْرِ حين لَمَزَهُ[1] المنافِقُون.

قال كعبٌ: فلمَّا بَلَغَني أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قد توجَّه قافِلاً من تَبُوكَ حَضَرني بَثِّيَ[2] ، فَطَفِقْتُ أتذكَّرُ الكَذِبَ وأقُول: بِمَ أَخْرجُ من سخطِه غداً؟

وأَسْتَعِينُ على ذلك بكلِّ ذِي رَأْي من أَهْلي ، فلمَّا قيل: إنَّ رسولَ الله قد أظلَّ قادِماً زاحَ عنِّي الباطِلُ حتَّى عرفتُ أنِّي لَنْ أَنْجُوَ منه بشيء أبداً ، فأجمعتُ صِدْقَهُ ، وأصبحَ رَسُولُ الله قادماً ، وكان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ بدأ بالمَسْجِدِ فركَعَ فيه ركعتين ، ثمَّ جَلَسَ للنَّاس ، فلمَّا فَعَلَ ذلك جاءه المُخَلَّفُون يَعْتَذِرُون إليه ، ويَحْلِفُون له ، وكانوا بِضْعاً وثمانين رَجُلاً ،

---

(١) أي: طعن فيه.

(٢) أي: حزني.

فَقَبِلَ منهم علانيتهم وبايَعَهُم ، واسْتَغْفَر لهم ، ووَكَلَ سَرائِرَهُم إلى الله تعالى حتَّى جِئْتُ ، فلمَّا سلَّمتُ تبسَّم ابتسامةَ المُغْضَب ، ثمَّ قال:

«تعالَ» فجئتُ أَمْشِي حتَّى جَلَسْتُ بين يديه ، فقالَ لي:

«ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكنْ قد ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ[1]؟».

فقلتُ: يا رَسُولَ الله! إنِّي لو جَلَسْتُ عند غَيْرِك من أهل الدُّنيا لرأيتُ أنِّي سَأَخْرُجُ من سخطِه بِعُذْرٍ ، لقد أُعْطِيتُ جَدَلاً ، ولكنَّني واللهِ لقدْ علمتُ لئن حَدَّثْتُكَ اليومَ حَديثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عنِّي لَيُوشكَنَّ اللهُ يسخِطُك عليّ ، وإنْ حَدَّثْتُكَ اليوم حديثَ صِدْقٍ تجدُ عليَّ فيه إنِّي لأرجُو فيه عُقْبي الله عزَّ وجلَّ[2] ، واللهِ

---

(١) أي: اشتريت إبلاً تركبها.

(٢) أي: أن يعقبني الله خيراً بتوبته عليّ.

ما كانَ لي من عُذْرٍ ، واللهِ ما كُنتُ قطُّ أقوى ولا أَيسْرَ منِّي حينَ تَخَلَّفتُ عنكَ.

فقال ﷺ: «أَمَّا هذا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حتَّى يَقْضيَ اللهُ فيك».

وسار رِجالٌ من بني سَلَمَةَ فاتَّبَعُوني ، فقالُوا لي: واللهِ ما عَلِمْناكَ أَذْنَبْتَ ذَنْباً قبلَ هذا ، لقد عجزتَ في ألا تكونَ اعْتَذَرْتَ إلى رَسُولِ اللهِ بما اعْتَذَرَ به المُخَلَّفُون ، فقد كان كافيك ذَنْبك اسْتِغْفار رسولِ الله ﷺ لك.

قال: فواللهِ ما زالُوا يُؤَنِّبُونني حتَّى أردتُ أن أرجعَ إلى الرَّسُولِ فأكذِّبَ نَفْسِي.

ثم قلتُ لهم: هل لقيَ هذا مَعِي من أَحَدٍ؟

قالُوا: نعم ، لقيه مَعَكَ رَجُلان ، هما: مُرارةُ بنُ الربيعِ العُمَري ، وهِلالُ بنُ أمية الواقِفيّ.

فمضيتُ حينَ ذَكَرُوهُما لي ، ونهى رسولُ الله ﷺ عن كَلامِنا أيُّها الثَّلاثَةُ.

فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ ، وتَغَيَّروا لنا حتَّى تَنَكَّرَتْ لي في نَفْسي الأرضُ ، فما هِي بالأرضِ التي أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنا على ذلك خَمْسِينَ ليلةً ، فأمَّا صاحِبايَ فاسْتَكانا ، وقَعَدا في بُيُوتِهما يَبْكِيانِ.

وأمَّا أنا فكنتُ أَشَبَّ القوم[1] وأَجْلَدَهم ، فكنتُ أخرجُ أشهدُ الصَّلاةَ مَعَ المُسْلِمين ، وأطوفُ في الأَسْواقِ ، ولا يُكلِّمُني أَحَدٌ ، وآتي رسولَ الله فأسلِّمُ عليه وهو في مَجْلِسه بعد الصَّلاةِ ، فأقولُ في نَفْسِي:

هل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بردِّ السَّلام أم لا؟ ثم أُصلِّي قَريباً منه ، وأُسارِقُه النَّظَرَ ، فإذا أقبلتُ على صلاتي ، نَظَرَ إليَّ ، وإذا الْتَفَتُّ نحوه أَعْرَضَ عني ،

---

(١) أي: أصغرهم سنّاً.

حتَّى إذا طالَ ذلك عليَّ من جَفْوةِ المُسْلِمين[1] مشيتُ حتَّى تَسوَّرْتُ جدارَ حائطِ أبي قَتادةَ ـ وهو ابنُ عَمِّي ، وأَحَبُّ النَّاسِ إليَّ ـ فَسلَّمْتُ عليه ، فواللهِ ما رَدَّ السَّلامَ عليَّ! فقلتُ له: يا أبا قتادةَ! أنشدُكَ باللهِ هل تَعْلَمُني أُحِبُّ اللهَ ورَسُولَه؟ فسكتَ ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُه ، فسكتَ ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُه فقالَ: اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ!

ففاضَتْ عَينَايَ ، وتولَّيتُ حتَّى تَسوَّرْتُ الجِدَار ، فبينما أنا أمشي في سُوقِ المَدِينةِ إذا نَبَطِيٌّ من نَبَطِ الشَّامِ ممَّن قَدِمَ بالطَّعام يبيعُه بالمَدِينةِ يَقُولُ: من يَدُلُّ على كَعْبِ بنِ مالكٍ؟

فلمَّا أشارُوا عليَّ دَفَعَ إلي كِتاباً من مَلِكِ غَسَّانَ ، وفيه: لقد بَلَغَنَا أنَّ صاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، ولم يَجْعَلْكَ اللهُ بدارِ هَوانٍ ولا مَضْيَعةٍ ، فالْحَقْ بنا نُواسِكَ.

فأخذتُ الكِتابَ فَأَلْقَيْتُه في التَّنُّورِ ، وبعدَ مُضِيِّ

---

(١) أي: إعراضهم.

أَرْبعين يوماً إذا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَأْتِيني ويُبَلِّغُني أن أَعْتَزِلَ امْرأتي!

فقلتُ: أُطلِّقُها أم ماذا أَفْعَلُ؟

فقالَ: لا، بل اعْتَزِلْها فلا تَقْرَبَنَّها، فقلتُ لها: الْحَقِي بأَهْلِكِ حتَّى يَقْضِيَ اللهُ في هذا الأمرِ.

خَمْسُونَ ليلةً!!

فلبثتُ بذلك عَشْرَ لياٍلٍ، فكملَ خَمْسُونَ ليلةً من حينِ نُهي عن كلامِنا!

ثم صلّيتُ صلاةَ الفجرِ خَمْسِينَ ليلةً على ظَهْرِ بَيْتٍ من بُيوتِنا، فبينما أنا جالسٌ على الحالِ التي ذَكَر اللهُ تعالى منا، قد ضاقَتْ عليَّ نَفْسِي، وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صوتَ صارخٍ أَوْفَى على سَلعٍ[1]:

---

(١) أي: صعد جبلاً في المدينة يقال له (سلع).

يا كعبُ بنَ مالكٍ! أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ ساجِداً، وعَرَفْتُ أنه قد جاء فَرَجٌ، فآذنَ رَسُولُ الله ﷺ الناسَ بتوبةِ اللهِ علينا حين صلَّى صَلاَةَ الفَجْرِ، فذهبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنا، فذهبَ قِبَلَ صاحبي مُبَشِّرُونَ، وركضَ رَجُلٌ إلى فرسٍ، وسَعَى ساعٍ مِنْ أَسْلم قِبَلي، وأوفى على الجَبَلِ، فكانَ الصَّوتُ أسرعَ من الفرسِ، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صَوْتَه يُبَشِّرُني نَزَعْتُ له ثَوْبيَّ فَكَسَوْتُهما إياه بِبُشْرَاهُ، واللهِ ما أملكُ غَيْرَهما يَوْمَئِذٍ، واسْتَعَرْتُ ثَوبَيْن فلبستُهما، وانطلقتُ أتأمَّم[1] رسولَ اللهِ يَتَلقَّاني الناسُ فَوْجاً يُهَنِّئُوني بالتَّوبةِ، ويَقُولُون لي: لتهنكَ توبةُ اللهِ عليكَ حتى دَخلتُ المَسْجِدَ، فإذا رسولُ الله جالسٌ حولَهُ النَّاسُ، فقام طلحةُ بنُ عُبيدٍ يُهَرْوِلُ حتى صَافَحَني وهَنَّأني، واللهِ ما قامَ رجلٌ من المهاجِرينَ غيرُه، فكان كعبٌ لا يَنْساها لطلحةَ.

---

(١) أي: أقصد.

ما أجملَ البِشارةَ من رَسُولِ اللهِ ﷺ!!

قال كعبٌ: فلمَّا سلَّمتُ على رَسُولِ الله ﷺ قال، وهو يَبْرقُ وَجْهُه من السُّرورِ: «أبشرْ بخيرِ يوم مرَّ عليكَ مُذْ ولدَتْكَ أمُّكَ».

فقلت: أمِنْ عِندِكَ يا رَسُولَ اللهِ، أم مِنْ عندِ اللهِ؟

قال: «لا، بل من عِندِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ».

وكان رسول الله إذا سُرَّ اسْتَنار وَجْهُه حتَّى كأنَّ وَجْهَه قِطْعةُ قَمَرٍ، وكنَّا نَعْرِفُ ذلك منه، فلمَّا جلستُ بين يديه، قلتُ: يا رسولَ الله! إنَّ من تَوْبتي أن أَنْخَلِعَ من مالي صَدَقةً إلى اللهِ وإلى رَسُولِه.

فقال: «أمسكْ عليكَ بعضَ مالك فهو خَيرٌ لكَ».

فقلتُ: إنِّي أُمْسِكُ سَهْمي الذي بِخَيْبَرَ، وإنَّ اللهَ تعالى إنَّما أَنْجاني بالصِّدقِ، وإنَّ من تَوْبتي ألا أُحدِّثَ إلا صِدْقاً ما بقيتُ، فو اللهِ ما عَلِمتُ أحداً من

المُسْلِمين أبلاهُ اللهُ تعالى في صِدْقِ الحَديثِ منذ ذكرتُ ذلك لرسولِ الله أحسنَ مِمَّا أبلاني اللهُ تعالى.

واللهِ ما تَعَمَّدْتُ كذبةً منذُ قلتُ ذلك لرسولِ اللهِ إلى يَوْمي هذا ، وإنِّي لأَرْجُو أن يَحْفَظَني اللهُ تعالى فيما بَقِي.

فأنزلَ اللهُ تعالى قولَه:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

[التوبة: ١١٧ - ١٩].

ما أروعَ العُكُوفَ في المُكْتَبةِ يا لحاظُ!!

وبعدَ أن دَوَّنتْ (ليلى) هذه القِصَّةَ في دَفْتَرِها.. خرجتْ لِتَبْحَثَ عن صَدِيقَتِها (لحاظ) فَوَجَدَتْها تبحثُ عنها!!

فقالتْ (لحاظ): لقد مَضَى أكثرُ من نِصْفِ ساعةٍ وأنا أبحثُ عنك ، أينَ كُنتِ مُخْتَبِئةً يا ليلى؟

أجابتْ ليلى: كنتُ غارقةً بين الكُتُبِ فهنا تكمنُ المُتْعةُ والسَّعادةُ ، فما أروعَ العُكُوْفَ في المَكْتَبةِ.. والتَّحدُّثَ مع الثَّقافةِ والفِكْرِ.. ، وما أَجْمَلَ حكاياتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وإلى لقاءٍ آخرَ ، مَعَ حكايةٍ نَبويّةٍ أُخْرى..

وآخِرُ دَعْوانا أن الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ